الجزء الثالث

حصاد المقاومة فى عموم إفريقيا

- **المقاومة الإفريقية فى شرق إفريقيا.**
- **المقاومة الإفريقية فى وسط القارة وجنوبها.**
- **ردود الفعل الإفريقى للغزو وأسباب فشلها.**
- **كلمة أخيرة.**

المقاومة الإفريقية فى شرق القارة:

نجح الاستعمار فى تمزيق إفريقيا واحتلالها، كما نجح فى إخفاء وطمس المقاومة الإفريقية المتواصلة والغليان والتوتر داخل هذه المجتمعات ضده، وإن كنا نجد لدى المؤرخين المنصفين فى الغرب وصفًا صادقًا لهذه المقاومة لكنها فى الغالب ما تصدر على أنها تمردات وانتقاضات لتجمعات وقبائل متصارعة متناحرة فيما بينها ثم وجهت سهامها إليه، فالمقاومة فى المفهوم الغالب لدى الغربيين إنما يقوم بها شعوب تنتظم فى دول ونظم مركزية أو فى وحدات سياسية صغيرة، وهو يستكثر أن تكون الشعوب الإفريقية على هذا القدر من الفهم والوعى والتماسك والتنظيم.

حقيقة أن الإفريقيين كانوا غير مدركين فى البداية ولا واعين لحقيقة مقاصد الأجانب الذين جاءوا من مغارب الأرض رحالة ومستكشفين ومرتزقة وشركات تجارية وأساطيل بحرية ودول شرهة طامعة أحكموا عليهم الطوق حتى استسلموا، وحقيقة أن التفتت السياسى والذاتية العرقية والإقليمية والمنازعات الداخلية بين الفئات الاجتماعية المتنافسة قد أضعفت قدره الشعوب الإفريقية على مقاومة الأوربيين، إلا أنه بالرغم من هذه النزعات المثيرة للفرقة كانت المواجهة والمقاومة هما الموقف الغالب إزاء الغزو والاحتلال الأوروبى الإمبريالى، وهذا ماركزت عليه فى الجزء الثانى من الكتاب من أنماط المقاومة الإفريقية والنشاط المناهض للاستعمار فى منطقة الحزام السودانى الممتد من المحيط الأطلسى إلى البحر الأحمر. وقد خصصت منطقة الحزام الإفريقى بدراسة تفصيلية لأنها أقرب فى الصلة بنا وباهتماماتنا، ولما كان من الصعب حصر المقاومة فى كل أجزاء إفريقيا كل على حدة فى عمل واحد وحتى لا أخل بالهدف الأساسى من الكتاب وهو إبراز المقاومة فى كل عموم إفريقيا، فقد وجدت أن أجمل فى هذا الفصل الأخير النضال الإفريقى فى عمومه مع الإشارة السريعة المختصرة لشرق إفريقيا وجنوب القارة بشكل عام.

تركزت أنماط المقاومة المناهضة للاستعمار وردود الفعل الإفريقية فى ثلاثة أشكال:

١- المعارضة أو المواجهة التى حاولت الحفاظ على سيادة المجتمعات الأصلية.

٢- المقاومة المحلية التى كانت تسعى إلى معالجة مبادىء فرضها نظام الحكم الاستعمارى.

٣- التمردات التى كانت تستهدف تدمير النظام الأجنبى الذى تولدت عنه هذه المساوئ.

كانت استراتيجية المجابهة هى طرد الأوروبيين وحماية الأوطان والحفاظ على نمط حياتها. كان هدف الاستقلال هو الهدف الأسمى، وكانت دول إفريقية كثيرة على استعداد لتعبئة قواها لمنع أى اعتداء على استقلالها.

وقد اقتنع القادة الإفريقيون بضرورة التغلب على التفوق الأوروبى فى السلاح إذا كان لهم أن يضمنوا لأنفسهم البقاء. وكان كثير من المجتمعات التى اشتركت من قبل فى التجارة الدولية قد استفادت من دخول سوق الأسلحة وحصلت على مقادير من الأسلحة مقابل العبيد، وقامت شعوب أخرى لم تشارك من قبل فى معاملات تجارية بزيادة صادراتها للحصول على بنادق حديثة وذخيرة تحسبًا للصدام مع الأوروبيين، كما دعم عدد من المجتمعات الإفريقية قدراته الدفاعية من خلال ابتكارات عسكرية ذاتية، ففى الجنوب الإفريقي مثلا أنشأ الموزمبيقيون مصانع للعتاد الحربى كانت تنتج البنادق والبارود وشيدوا إنشاءات دفاعية.

كما كان هناك تباين جوهرى فيما استخدموه من تكتيكات، فقد واجهت دول إفريقية التعديات الأوربية الأولى بالمقاومة العنيفة على الرغم مما كان يتمتع به العدو من تفوق عسكرى ساحق، وحاول قادة إفريقيون آخرون تجنب المجابهة الأولى على أمل أن يتمكنوا إما من تعزيز قدراتها العسكرية وإما من التوصل إلى معاهدة عادلة تعترف بسيادة دولهم، وفى حالات قليلة اعترفت نظم إفريقية بالسلطة الاسمية للأوربيين طالما لم تبذل جهود جادة لفرض السيطرة الاستعمارية عليها، إلا أن هذه الاستراتيجية انتهت فى كل الأحوال إلى المجابهة بعد أن جعل مؤتمر برلين من السيطرة الفعلية شرطا مسبقا للاعتراف الدولى بدعاوى الملكية الاستعمارية[1].

(١) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق ـ ص١٧٩ ـ ١٨٤.

المقاومة الإفريقية فى شرق إفريقيا

فى نهايات القرن ١٩ كانت مجتمعات شرق إفريقيا قد حققت مراحل متفاوتة من التنظيم الاجتماعى، وكان بعضها كما فى ممالك بوغندا وتنجانيقا قد بلغ درجة عالية من الحكم المركزى، وفى مثل هذه المجتمعات كان رد الفعل تجاه الغزو الأجنبى مرهونًا بما يفرضه الملك أو الزعامة.

وانقسمت ردود الفعل تجاه التغلغل الأجنبى إلى فريقين: فريق قاوم الاحتلال وفريق تعاون مع الاحتلال. من بينهم من قاوم الاستعمار ووصل إلى حد المواجهة المسلحة مع الغاصبين وانتهج المقاومة الإيجابية، ومنهم من لم يحمل السلاح ولكنهم رفضوا التعاون مع الغاصبين وسلكوا سبيل المقاومة السلبية. أما الذين تحالفوا مع المستعمرين فكانوا يكافأون بتعيينهم فى مناصب فى النظام الاستعمارى. كانت ردود الأفعال تجاه الغزو متباينة، فعلى الرغم من أن كل المجتمعات كانت حريصة على المحافظة على سيادتها فقد كانت الاختلافات تظهر بحسب التماسك الاجتماعى أو عدمه.

التسابق الأوروبى وأنماط المقاومة الإفريقية:

كان التسابق الاستعمارى على شرق إفريقيا يتمثل فى ثلاث قوى متنافسة هى سلطنة زنجبار وألمانيا وبريطانيا، وكان أول من ظهر على الساحة هم العرب الذين اتخذوا من زنجبار قاعدة لعملياتهم، وكانت مصالحهم سواء فى المنطقة الساحلية أو فى الداخل مصالح تجارية، ولكن خلال العقدين الأخيرين من القرن ١٩ أخذت المصالح الألمانية والبريطانية التى كانت تتغلغل بثبات تهدد المصالح العربية.

وكانت المجتمعات الإفريقية المختلفه تتفاوت فى مدى اتصالها بالأوروبين أو العرب، وكان اتصال المناطق الساحلية بالأوروبيين والعرب أقدم عهدًا من اتصال المناطق الداخلية بهم، أما شعوب الداخل فقد كان اتصالهم بالعرب أطول أمدًا، وصلات العرب الذين يتجرون فى العاج والرقيق ترجع إلى ما قبل تسعينيات القرن ١٩.

وقد اختلفت أساليب التغلغل الأوروبى من مكان لآخر، إلا أنها تميزت بوجه عام باستخدام القوة مقترنة بتحالفات دبلوماسية، واتخذت صورة الغزوات التى كانت فى كثير من الأحيان أعمالًا للسلب والنهب، للمفوض البريطانى لمحمية شرق إفريقيا تعبير شهير يقول «لدينا فى شرق إفريقيا تجربة نادرة هى التعامل مع صفحة ملساء مع بلد يكاد يكون

بكرًا ولا يعيش فيه سوى عدد ضئيل من السكان، بلد نستطيع أن نتصرف فيه كما يحلو لنا، وأن ننظم الهجرة إليه فنفتح الباب أو نغلقه حسبما يبدو لنا أنه الأفضل».

هذا المنطق المتعالى الجاهل بأمور إفريقيا هوما استثار المقاومة وجعلها أكثر عنفا فى الشرق الإفريقي، ففى تنجانيقا (تانزانيا) قام سكان الساحل بإطلاق النار على سفينة حربية ألمانية سنة ١٨٨٨ وأعطوا الألمان مهلة يومين للجلاء عن الساحل وبعد ذلك هاجموا «كلوة» وقتلوا الألمان بها، وفى كينيا كانت المقاومة أعنف واستمرت سبع سنوات ضد الاستعمار البريطانى احتجاجًا على مد الخط الحديدى عبر أراضيهم ولم تنته إلا باغتيال زعيمهم وهو فى طريقة إلى المفاوضات التى دبرت بغية الغدر به. كما قاوم الصوماليون فى الأوجادين التدخل البريطانى واستلزم الأمر جلب تعزيزات هندية لهزيمتهم عام ١٨٩٩.

ووقع أخطر تحد للحكم الاستعمارى فى شرق إفريقيا بانتفاضة. الماجى ماجى فى تنجانيقا استخدم فيها الدين والسحر على السواء، ولجأ قائد الحركة إلى استخدام معتقداتهم الدينية ليعمل على وحدة الإفريقيين، وناشدهم أن يتحدوا وأن يقاتلوا الألمان فى سبيل حريتهم فى حرب شرعها الله، وأن أسلافهم سيبعثون إلى الحياة وسيحاربون إلى جانبهم، وأعد ماء طبيًا (ماجى) زعم أن من يشربه من أنصاره يصبح محصنًا ضد رصاص الأوروبيين.

كانت انتفاضة ماجى ماجى أول حركة واسعة النطاق لمقاومة الحكم الاستعمارى فى شرق إفريقيا، كانت حركة جماهيرية فلاحية موجهة ضد الاستغلال الاستعمارى هزت النظام الألمانى فى تنجانيقا فهو إن كان قضى على الحركة إلا أنه أجبر على التخلى عن المزارع العامة لزراعة القطن الذى كان فرضها الاستعمار الالمانى على الفلاحين للعمل دون مقابل أو بمبالغ ضئيلة إلى حد أن البعض كان يرفض أخذها، كما أدخلت بعض الإصلاحات على بنية النظام الاستعمارى وبخاصة فيما يتعلق بتجنيد العمال واستخدامهم، وكان الغرض من هذه التدابير جعل الاستعمار مستساغًا للإفريقيين. ولكن التمرد فشل وكان فشله يعنى حتمية انهيار المجتمعات القديمة.

كانت ردود الأفعال الأولى المناهضة للاستعمار تستهدف حماية استقلالها من التهديدات الأجنبية، أما ردود الفعل التالية داخل البلاد فكانت تخليص الناس من القهر والسيطرة الاستعمارية؛ لذلك اختلفت ردود الفعل وأنماط المقاومة من بلد لآخر بل بين شعوب البلد الواحد.

المقاومة فى كينيا:

ففى كينيا كانت مقاومة قبيلة النانداى الصغيرة أعنف وأطول مقاومة خاضها شعب من شعوب كينيا ضد المستعمرين البريطانيين. ترجع صلابة مقاومة النانداى للبريطانيين إلى طبيعة مجتمعهم، فقد كان النانداى مقسمين إلى وحدات إقليمية، وكان المحاربون من كل وحدة يضطلعون بمسئولية الدفاع عن إقليمهم ولهذا كانوا ينامون فى كوخ واحد وهذا أقرب ما يكون إلى الجيش النظامى. وقد جمعت الجيوش الإقليمية تحت إمرة زعيم تقليدى واحد كان هو الذى يقرر موعد قيام الجيش بشن غاراته.

وكانت الجيوش تترابط من خلال شخص يحضر اجتماعات المجلس الإقليمى حيث كان الإقليم لا العشيرة هو مركز الحياة الاجتماعية للنانداى مما يعنى إخفاء التنافس العشائرى، وأفضى إلى مجتمع متماسك، وهذا التماسك هو الذى أتاح للمجتمع التفوق العسكرى على جيرانه، وهو ما جعل أن تتمكن قبيلة بالغة الصغر من إرهاب شعوب أكبر منها وأن تستمر فى ذلك بمنأى عن العقاب لعدة عقود.

إن هذا التلاحم الاجتماعى للمجتمع ومع ثقة المحاربين فى أنفسهم وفى زعيمهم جعل النانداى قوة عسكرية مرهوبة الجانب، وقد دفعهم ما حققوه من انتصارات عسكرية إلى الإيمان بتفوقهم على الشعوب الأخرى بمن فيهم البيض، فالنانداى يعتقد أنه مساو للرجل الأبيض وإن لم يكن متفوقًا عليه.

وهذا التلاحم بين شعوب النانداى فى كينيا يختلف تمامًا مع شعب آخر فى كينيا ذاتها، ففى وسط كينيا كان لكل زعيم أو مجموعة أو عشيرة موقف مستقل إزاء التدخل الأجنبى، فزعيم قبائل الكيكويو «واياكى» كان مسلكه مغايرًا انحاز لمصادقة الرجل الأبيض وقام بتأمين مرور الحملة البريطانية عبر أراضى الكيكويو وعقد معاهدة تآخى دم مع المندوب البريطانى (فردريك لوجارد) وسمح له ببناء حصن على أرضه، ومع ذلك نفاه البريطانيون عندما طلب منهم أسلحه نارية.

وعلى النحو نفسه تحالف زعيم قبائل الماساى مع البريطانيين، وكان الذين يتحالفون مع البريطانيين يكافأون بتعيينهم فى مناصب فى النظام الاستعمارى.

وعلى الساحل الكينى قاومت عائلة مزروعى التى استوطنت الساحل، وقد لجأت عائلة المزروعى إلى المقاومة نتيجة محاولات البريطانيين التدخل فى الشئون الداخلية

للمجتمعات الساحلية وفرض الحكم البريطانى. قاد المقاومة الزعيم مبروك بن رشيد الذى نظم حرب كروفر ضد الأسلحة المتفوقة البريطانية، ولم يتمكن البريطانيون من هزيمته إلا بعد أن جلبوا تعزيزات من القوات الهندية.

وفى شمال كينيا وراء منطقة كيسمايو قاوم صوماليو أوجادين مع عائلة المزروعى التدخل البريطانى، واستلزم الأمر من القوات البريطانية جلب تعزيزات هندية لهزيمتهم عام ١٨٩٩.

المقاومة فى تنجانيقا (تانزانيا):

كان رد الفعل فى تنجانيقا (تانزانيا حاليًا) مماثلًا لما حدث فى كينيا، يجمع بين استخدام القوة والتحالفات الدبلوماسية، فقد تحدت شعوب المنطقة الخلفية الواقعة وراء«كلوه» القوات الألمانية واشتبكوا معهم فى أعوام ١٨٩١-١٨٩٣. وقتلوا من الألمان ٢٩٠ ألمانيًا بين قائد وجنود مما جعل الألمان يعملون للانتقام لما لحق بهم فاجتاحوا عام ١٨٩٤ منطقة الهيهى واستولوا على عاصمتها، وبعد مطاردة استمرت أربع سنوات انتحر زعيم المقاومة (مكواوا) حتى لا يقع فى الأسر.

أما سكان ساحل تنجانيقا، فقد نظموا مقاومتهم حول شخصية وزعامة أبو شيرى، وكان ساحل تنجانيقا شأنه شأن ساحل كينيا تغلب عليه الثقافة الإسلامية، فهناك كان يعيش خليط من العرب والأفارقة يتزاوجون ويتولون أمور تجارتهم المحليه، وأدت هذه التجارة المزدهرة فى ذلك الحين إلى إنشاء العديد من المدن على امتداد الساحل، وهدد مجيء الألمان هذه التجارة التى كانوا يريدون أن يحلوا مكانها تجارتهم، وأثار ذلك حنق السكان المحليين وبخاصة العرب فشرعوا فى المقاومة.

ولد الزعيم بوشيرى قائد حركة المقاومة عام ١٨٤٥ لأب عربى وأم من الأورومو (الغالا) وكان حفيدًا لأحد المستوطنين العرب الذين أقاموا على الساحل كأحد افراد جماعة اعتبرت نفسها من السكان المحليين. قاوم بوشيرى نفوذ سلطنة زنجبار على الساحل بل دعا إلى الاستقلال، وقام سكان الساحل تحت قيادته بإطلاق النار على سفينة حربية ألمانية فى سبتمبر ١٨٨٨ وأعطوا الألمان مهلة يومين للجلاء عن الساحل، وبعد ذلك هاجموا «كلوه» وقتلوا الألمان الذين كانوا بها. ولكن الألمان الذين أطلقوا على هذه المقاومة لفظ التمرد العربى أرسلوا كتيبة هاجمت حصن بوشيرى وأجبروه على الانسحاب. فرّ بوشيرى متجهًا

إلى الشمال حيث وُشى به وسُلم إلى الألمان الذين شنقوه فى ديسمبر ١٨٨٩، فانهارت المقاومة الساحلية وقام الألمان بقصف «كلوة» والاستيلاء عليها فى مايو ١٨٩٠.

المقاومة فى أوغندا:

جرى فى أوغندا نمط مماثل من ردود الفعل تجاه الاستعمار البريطانى، فشهدت الفترة ما بين عامى ١٨٩١- ١٨٩٩ صدامًا بين قوات ملك البونيورو (كاماريفا) وقوات القائد البريطانى (لوجارد) والوكلاء البريطانيين الآخرين، لجأ ملك البونيورو أولًا إلى الدبلوماسية وحاول الاتفاق مع (لوجارد) ولكن دون جدوى، وفى النهاية شن الملك حرب عصابات ربما كانت الأولى من نوعها فى شرق إفريقيا، فانسحب من بونيورو إلى الشمال ومن هناك أخذ يغير على القوات البريطانية واستعمل تكتيكات حرب العصابات المتمثلة فى الانسحاب من بلد مجاور ثم الإغارة على القوات المحتلة. ويعتبر « موانجا» ملك كاباكا بوغندا (الباجندا) التى أعلنت محمية ١٨٩٤ أعظم دبلوماسى بين كل أولئك الذين كان عليهم أن يواجهوا الاندفاعة الإمبريالية فى شرق إفريقيا فى العقد الأخير من القرن ١٩ فحين ارتقى العرش عام ١٨٩٤ أظهر ريبة فى الأوربيين فى بلاده الذين تنكروا فى ثياب المبشرين للسيطرة على بلاده، وتجلت براعته الدبلوماسية أيضًا فى الطريقة التى عامل بها الطوائف الدينية المختلفة المتصارعة ويؤلبها على بعضها البعض، الكاثوليك ضد البروتستانت والمسلمين ضد الكاثوليك أو البروتستانت أو كليهما حسب تقديره للخطر الذى يشكله كل منهم مع حكمه، وهكذا استخدام موانجا دبلوماسية «فرق تسد»، ذلك التكتيك الذى استطاعت الدول الاستعمارية أن تستخدمه بفعالية فى السيطرة على إفريقيا.

كان موانجا يلجأ إذا اقتضى الأمر إلى إحياء بعض التقاليد القديمة ساعيًا إلى طرد الأجانب جميعا كما حدث عام ١٨٨٨. فقد حاول أن يستدرج كل الأجانب وأتباعهم لحضور استعراض بحرى يجرى فى جزيرة داخل بحيرة فكتوريا على أن يتركهم هناك حتى يموتوا جوعًا؛ إذ كان القيام بتدريبات بحرية فى البحيرة تقليدًا من تقاليد ملوك البوغندا، ولكن الخطة تسربت إلى الأجانب فقاموا بتدبير انقلاب فخلعوا «موانجا» عن العرش ونصبوا أخاه ليكون حاكمًا خاضعًا لسيطرتهم. وقد نجح «موانجا» بعد ذلك فى استرداد عرشه ولكن لم يلبث أن اطيح به وُنفى.

على أن هناك من بين الباجنديين من تحالفوا تحالفًا وثيقًا مع المستعمرين البريطانيين

وأصبحوا يعرفون باسم «إمبريالية الباجند» وهؤلاء من اضطلعوا بعد اتفاقية ١٩٠٠ بمسئولية مد نفوذ الاستعمار البريطانى إلى بقية أوغندا. وقد جعلت اتفاقية ١٩٠٠ من البوجنديين شركاء للبريطانيين فى مد النفوذ الاستعمارى فى المنطقة، وأصبحت بوجندا مركزًا للعمليات البريطانية، وترتب على ذلك أن أصبحت الكراهية للاستعمار تتجه للبوجندا أكثر من أن تتجه للاستعماريين أنفسهم، وأن كثيرًا من المشاكل السياسية التى عانتها أوغندا بعد ذلك كانت نابعة من هذه المشاكل المبكرة بين البريطانيين والباجندا.

خلاصة القول أن المقاومة الإفريقية كانت تختلف باختلاف طبيعة المجتمع ووفق إدراك كل مجتمع محلى للتهديد الخارجى لسيادته، كان الاختلاف ينحصر فى اتساع المقاومة أو ضيقها، ولكن فى المجمل كانت المقاومة فى كل مكان ولم يفرض الاستعماريون سلطتهم إلا بالعنف. وقد أدت مطالب الاستعماريين البيض إلى حمل الإفريقيين على العنف بسبب المعاناة التى واجهوها من فرض الضرائب وإلزامهم وتسخيرهم فى العمل بأداء أعمال معينة وفقدان المزيد من الأرض والحرمان من الحرية السياسية وتآكل ثقافاتهم. ولم يكن فرض الضرائب وسيلة لزيادة الإيرادات فحسب بل سبيلا لإجبار الإفريقيين على الخروج من ديارهم إلى سوق العمل والاقتصاد النقدى، فقد كان ثمة احتياج لأيدٍ عاملة فى مزارع المستوطنين الغربيين والأشغال العامة مثل شق الطرق.

إن الحقيقة المؤكدة أنه منذ الأيام الأولى للاستعمار قامت الحركات المناهضة له فى كل شرق إفريقيا، وكانت تستهدف حماية استقلالها من التهديدات الأجنبية وتخليص الناس من القهر والسيطرة الاستعمارية، وظهرت حركات وتمردات سكان الساحل مبكرة ورفضوا ترحيلهم من أراضيهم لإفساح المجال للمستوطنين البيض، ولجأوا إلى حرب العصابات حينما طلب منهم جمع أسلحتم وتسليمها واشتبكوا فى صراع مع البريطانيين وكان رد الفعل البريطانى على ذلك إحراق البيوت ومصادرة الممتلكات.

على أن أخطر تحدٍّ للحكم الاستعمارى فى شرق إفريقيا كان انتفاضة ماجى ماجى كما سبق الإشارة إليها ـ وقد اجتمعت السخرة وفرض الضرائب والمضايقات المستمرة وظروف العمل القاسية كأسباب لنشوب الانتفاضه، ولكن السبب المباشر كان تطبيق مشروع المزارع العامة لزراعة القطن، وقد طولب الناس بالعمل فى هذا المشروع ثمانية وعشرين يوما فى العام دون أجر، وكان هذا يضطر الناس لترك مزارعهم للعمل فى هذه المزارع العامة. وقد شملت الانتفاضة أكثر من عشرين مجموعة عرقية مختلفة، كانت حركة ثورية أحدثت

تغييرات أساسية فى النطاق التنظيمى والتقليدى واستمرت من يوليو ١٩٠٥ إلى أغسطس ١٩٠٧ وانتشرت فى مساحة تبلغ ستة وعشرين ألف كيلو متر مربع فى الثلث الجنوبى من تنجانيقا. كانت انتفاضة الماجى ماجى أول حركة واسعة النطاق لمقاومة الحكم الاستعمارى فى شرق إفريقيا، كانت حركة جماهيرية فلاحية موجهة ضد الاستغلال الاستعمارى هزت النظام الألمانى فى تنجانيقا.

وبوجه عام أحدثت فى شرق إفريقيا تغييرات بعيدة الأثر، فقد فرض الاستعمار على السكان العنف، وكان موقف الإفريقيين يجمع بين المواجهة العسكرية والعمل السياسى، أو يذعنون ويتخذون موقف اللامبالاة مالم يُطلب منهم مطالب مباشرة، وكانت إقامة النظام الاستعمارى تعنى تنظيم الحياة السياسية والاقتصادية، فقد فرضت الضرائب والسخرة والحرمان العام من الحقوق الإنسانية، ورد بعض الإفريقيين على هذه التغييرات ردًّا عنيفا وأذعن آخرون.

المقاومة الإفريقية فى وسط القارة وجنوبها

خضعت مجتمعات كثيرة فى وسط القارة وجنوبها خضوعًا سلميّا للاستعمار أول الأمر لعجزها عن المقاومة أو عن ادراك الآثار المترتبة على الحكم إلا أنها ما لبثت أن هبت بعد ذلك محاولة استرداد استقلالها، وقد حدث هذا النوع من المجابهة المتأخرة فى الكونغو حيث كان السكان الأصليون ينظرون الى وكلاء دولة الكونغو الحرة أول الأمر كشركاء تجاريين وحلفاء ضد تجار الرقيق الأجانب، ولم تدرك المجتمعات المحلية أنها فرطت فى استقلالها دون أن تدرى إلا حين حاولت دولة الكونغو الحرة أن تفرض الضرائب وتجند العمال للسخرة.

وفى خلال الفترة ما بين أعوام ١٨٨٥-١٩٠٥ تمردت أكثر من اثنتى عشرة مجموعة من المجموعات التى تم إخضاعها اسميًا فى الكونغو. وظلت هذه المجموعات تقاوم الأوروبيين مقاومة فعالة مدة تزيد عن عشر سنوات قبل أن تحلق بهم الهزيمة ١٩٠٥. كما تمرد الأهالى فى نهاية القرن ضد السخرة فى مزارع المطاط واستطاعوا فى ذروة نشاطهم أن يعبئوا أكثر من خمسة آلاف عامل خاضوا حرب عصابات طويلة الأمد انطلاقًا من قواعدهم فى أعماق منطقة الغابات.

وفضلًا عن التباين فى ردود الأفعال الأولى كان المقاومون يختلفون فى تمسكهم

بذاتيتهم الاثنية، فمن جهة كان هناك عدد من المجتمعات الكبيرة والصغيرة التى واجهت الغزاة دون أن تحاول أى منها إقامة تحالفات أكثر اتساعا، وكان عجز التكتلات المتنافسة فى دولة عن الاتحاد فى مواجهة التغلغل الأوروبى هو الامتداد المنطقى لرؤيتها الذاتية، وثمة أمثلة لحالات ساعد فيها المتنافسون الدول الإمبريالية على أمل تعزيز مركزهم الداخلى أو فى مقابل الحصول على مساعدة ضد خصمه الداخلى، فى حين حاولت أنظمة إفريقية أخرى التغلب على النقص فى قدراتها العسكرية بتنظيم تحالفات عريضة القاعدة ومتعودة الاثنية فى مواجهة الاستعمار. كان ثمة ارتباط بين درجة التمييز الاثنى ونطاق حركات المقاومة، فحينما كانت المجتمعات الإفريقية تحارب بمفردها كان حجم جيشها وقدرتها على المقاومة محددة، إما التحالفات الواسعة فقد استطاعت فى أغلب الاحيان أن تعبئ جيوشًا كبيرة قوية وأن تقاوم مقاومة طويلة. وكانت مثل هذه الاتحادات المؤقتة تقوم حينما كانت توجد تحالفات اقتصادية أو دينية أو صلات قرابة. وفى بعض الأحيان كان الخصوم التاريخيون يطرحون عداءهم جانبًا سعيًا لضمان البناء.

ولما كانت حركات المقاومة لم تبلغ أهدافها السياسية النهائية، فقد كان هناك اتجاه إلى التهوين من إنجازاتها العسكرية المباشرة أو تجاهلها ووصم هذه الحركات جميعها بالفشل، والحقيقة أن الاختلاف فى نطاق هذه الحركات وفى مقدرتها على الحصول على أسلحة وفى حجم القوات الإمبريالية خلق أوضاعًا بالغة التنوع، ففى الوقت الذى منيت فيه أنظمة إفريقية بهزيمة تمكنت أنظمة لا تزيد عددًا عنها من احتواء الهجمات الأوروبية الأولى وكبدت العدو خسائر جسيمة، ففى نياسالاند مثلًا أوقفت المقاومة الأهلية تقدم الجيش الاستعمارى البريطانى لمدة تقرب من خمس سنوات، وحدث موقف مماثل فى الكونغو حيث تكبدت القوة العامة الحكومية خسائر على مدى عشرين سنة قبل ان تخضع المقاومة فى نهاية المطاف.

وعلى الرغم من هذه الانتصارات التى تحققت بشق الأنفس انتهت كل حروب الاستقلال فى الوسط والجنوب الإفريقي بالفشل، ويرجع تفسير عجز الإفريقيين عن وقف الزحف الأوروبى إلى العوامل الذاتية والاثنية والانقسامات الداخلية بين الفئات الحاكمة أو فى الطبقة الحاكمة أو بين هذه الطبقة وبين المحكومين، كما أدت الخصومات الإفريقية إلى تسهيل استراتيجية «فرق تسد» التى انتهجها المستعمرون. فتاريخ النضال من أجل المحافظة على استقلال الإفريقيين وسيادتهم يزخر بأمثلة الإفريقيين لم يقفوا عند حد الخضوع للقوى

الاستعمارية بل ساعدوها أيضًا سعيًا للانتقام من إساءات كان جيرانهم من الإفريقيين قد ارتكبوها فى حقهم. كما كان عدد من القادة الإفريقيين يرون أن عقد التحالفات مع الاوروبيين يمكن أن يحقق تطلعاتهم التوسعية وأن يعزز فى الوقت نفسه مركزهم الداخلى، وهناك مجتمعات تصدت للغزاة فى بادئ الأمر ثم انقلبت إلى تحالفات معهم مقابل مكاسب مادية ووعود بمراكز أفضل فى ظل النظام الاستعمارى الجديد، ولولا الحلفاء والمرتزقة الإفريقيون لما تمكن الأوروبيون من فرض حكمهم بمثل هذه التكلفة الزهيدة من القوة البشرية لهم، كان المجندون الإفريقيون يمثلون أكثر من ٩٠٪ من الجيوش البرتغالية التى تمكنت فى النهاية من فتح وادى الزمبيزى سنة ١٩٠٢، وشهدت أنجولا نمطًا مماثلًا، كما كان جيش الكونغو الحرة يتكون من مجندين إفريقيين مع المرتزقة الزنجباريين من زنجبار والهوسا من نيجيريا وكان الضباط فقط أوروبيون. كانت النتيجة النهائية لهذه العوامل هى الحد من إمكانيات بذل جهود مناهضة للاستعمار واسعة النطاق وعريضة القاعدة ومنسقة على النحو الذى يستلزمه التصدى للتفوق الواضح فى القوة العسكرية التى كانت تتمتع بها القوات الاستعمارية.

المقاومة المحلية المحدودة:

على خلاف المقاومة التى كان هدفها الرئيسى هو المحافظة على الاستقلال؛ كان هناك دافع مباشر من الأهالى للمقاومة، ذلك أن لسعى القوى الاستعمارية إلى حشد أيد عاملة رخيصه لمشروعات الحكومة والمصالح الرأسمالية الأوروبية لجأت إلى السخرة إلى جانب ما فرضته من ضرائب باهظة، ففى الكونغو كان الإفريقيون يرغمون على جمع المطاط والعمل فى خطوط السكك الحديدية وفى المناجم، وكان المستفيد الأول من أعمال السخرة فى موزمبيق شركات متعددة الجنسيات، كما جرى تصدير موزمبيقيين آخرين إلى روديسيا الجنوبية(زمبابوى) وجنوب إفريقيا، وتكررت هذه الصورة من القهر والإرهاب لتجنيد الإفريقيين للعمل فى مزارع الأوروبيين فى نياسالاند وفى مناجم روديسيا الشمالية(زامبيا). ولم يُعف من التجنيد لأعمال السخرة الفلاحون الذين بقوا فى ديارهم، فقد كان القانون يفرض على سكان الريف العمل عددًا معينًا من الأسابيع بلا مقابل فى مشروعات الأشغال العامة وإلاتعرضوا للسجن.

باختصار كابد الإفريقيون أعباء اجتماعية واقتصادية باهظة من الاستعماريين شمل الأسر إما بصورة مؤقتة أو دائمة، وعاش الفلاحون فى خوف دائم مما يرتكبه الأوروبيون

والمرتزقة الإفريقيون من عسف، وفى المجال الاقتصادى ترتب على تصدير القوى العاملة زيادة حدة النقص فى الأيدى العاملة مما أسفر عن ركود النشاط الريفى وتخلفه.

وقد أثارت ألوان العسف هذه احتجاجات ومقاومة من جانب الفلاحين والعمال. كانت هذه المقاومة المحلية تمارس يوميًا وبدون منظور مستقبلى، وقد تجاهلها المؤرخون على الرغم من أن المقاومة اليومية والعصيان والتمردات تمثل فصلًا هامًّا من تراث الكفاح ضد الاستعمار فى وسط القارة. وقد شاع التهرب من دفع الضرائب فى كل مكان فكانت القرية تلجأ قبل وصول جباة الضرائب إلى الفرار إلى منطقة لا يسهل الوصول إليها وتظل فيها إلى أن يرحل موظفو الحكومة.

كما توصل الفلاحون إلى عدد من الأساليب لتجنب مشاق السخرة أو التقليل منها، وبلغ بهم الأمر إلى حد حمل السلاح وطرد الذين يجندون العمال من أراضيهم، ولجأوا إلى تكتيكات أخرى منها التمارض والتباطؤ فى العمل والإضراب والهروب. ولجأ البعض ممن استبد بهم السخط إلى تدمير المعدات الزراعية وإشعال النار فى المستودعات وسرقة مخازن شركات الامتياز وتخريب خطوط النقل والمواصلات، وكان الفرار عبر الحدود تعبيرًا شائعًا آخر من السخط، وتشير السجلات البريطانية الرسمية إلى أن أكثر من خمسين ألف إفريقى ممن كانوا يعيشون فى وادى الزمبيزى هربوا إلى روديسيا الجنوبية فى خلال الفترة ما بين ١٨٩٥-١٩٠٧، وقد وقع فى وادى الزمبيزى فيما بين أعوام ١٨٩٠-١٩٠٥ ستة عشر تمردًا.

وكانت إقامة مجتمعات اللاجئين فى المناطق المقفرة صورة من الصور التى اتخذتها استراتيجية الانسحاب فبدلًا من عبور الحدود الدولية كان الفلاحون الذين أحجموا عن الوفاء بالتزاماتهم القانونية يقيمون لأنفسهم مجتمعات منعزله تتمتع بالاستقلال الذاتى.

وثمة مجتمعات أخرى لم تقنع بمجرد البقاء خارج نطاق السيطرة الأوروبية بل اتخذت موقفًا عدائيًا تجاه أنظمة الحكم الاستعمارية، وأخذت تهاجم رموز القمع الريفى من مجندى عمال وجباة ضرائب ورجال شرطة أفارقة ساعية بذلك إلى حماية قراهم الأصلية وحماية للفلاحين المحليين من جباة الضرائب ومجندى العمال وموظفى الشركات المستغلين ورجال الإدارة الجائرين، ولم يكن مجتمعهم يعتبرهم مجرمين على الرغم من انتهاكهم نظام الحكم الاستعمارى وكانوا يسمونهم«قطاع الطرق الاجتماعيين». وكان هؤلاء ينالون دعمًا مستمرًّا

من السكان الريفيين الذين كانوا يمدونهم بانتظام بالطعام والذخيرة، وفى بعض الأحيان كان المجندون الإفريقيون الذين عبئوا أصلًا لقمع المنشقين المحليين يتمردون هم أنفسهم احتجاجًا على المظالم الاستعمارية التى لم يكونوا بمنجى عنها، وكانت تمرداتهم بوجه عام نتيجة لإنخفاض الأجور والعقاب الصارم والتصرفات النزقة من الضباط الأوروبيين.

وابتداء من عام ١٨٨٥ أى منذ احتلال الأجزاء الأولى من وسط إفريقيا حتى عام ١٩١٨ وقع أكثر من عشرين تمردًا فى المستعمرات الخمس أنجولا وموزمبيق ونياسالاند وروديسيا الشمالية والكونغو. كما شارك الكهنة والوسطاء الروحانيون بتنظيم التمردات وأضفوا عليها طابعًا مقدسًا، وكان انغماسهم فى هذا الشأن امتدادًا منطقيًا لدورهم التاريخى كحراس روحانيين للوطن، كانوا يدعون إلى الإطاحة الفورية بالسادة الاستعماريين، كما جاء فى موعظة كاهن نياسالاند عام ١٩٠٩ «لقد آن لنا أن نقاتل البيض، وسنبدأ من الآن نخوض القتال ولسوف يهب السود ويطردوا البيض جميعًا من البلاد[١]».

أليس من التجنى إنكار المقاومة الإفريقية وجهود الإفريقيين المضنية فى الحفاظ على سيادتهم؟.. لقد تحققت نبوءة الكاهن النياسا لندى بعد نصف قرن حين حصلت أغلب الدول الإفريقية على استقلالها فى الستينيات من القرن العشرين، وتحررت إفريقيا سياسيًا من الاستعمار السياسى ولكن وقعت فى شرنقة الاستعمار الاقتصادى.

ردود الفعل الإفريقي للغزو وأسباب فشلها:

ما إن حل عام ١٩٠٠ حتى كانت جهود الإفريقيين للحفاظ على سيادتهم واستقلالهم قد أحبطت. وعمدت السلطات الاستعمارية إلى تطبيق مبدأ السلطة التى لا تنازع فعينت مفوضين للأقاليم ومفوضين جوالين وأنشأت محاكم وسنت قوانين وتشريعات جديدة، وثبتت بعض الحكام وعزلت آخرين وعينت حكامًا جددًا، وأدخلت الضرائب المباشرة وغير المباشرة واستعانت بالسخرة فى إنشاء الطرق والسكك الحديدية.

وجاء رد الفعل الإفريقي تجاه النظام الاستعمارى عكس ما كان يتوقع المستعمرون من الخضوع أو التحالف، بل ظهرت المقاومة بشتى الطرق: الثورات وحركات التمرد والهجرات والاضطرابات والمقاطعة. وكان أشهر سلاح استخدمه شعوب غرب إفريقيا هو سلاح التمرد والثورة. من أبرز الأمثلة على ذلك الثورة التى قادها فودة سيلا ملك كومبو

(١) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق صفحه ١٨٩ ـ ١٩٧.

الذى كان شيخ طريقة مسلمًا، وفودة كابا الحاكم المسلم فى جامبيا، وثورة ضريبة الأكواخ فى سيراليون[1] عام ١٨٩٨، وثورة اللوبى والجولا والديولا فى السودان الغربى.

الواقع أن تحليل حاكم سيراليون البريطانى يصدق على معظم الثورات وحروب العصابات التى نشبت فى غرب إفريقيا فيما بين الفرنسى ١٨٩٠-١٩٠٠ ، وانتقاضة الأهالى وثوراتهم فى داهومى وفى ساحل العاج وغينيا.(والجدير بالذكر أن تلك الثورات ازدادت حدة إبان الحرب العالمية الأولى).

الهجرات الجماعية:

لم تكن الثورات وحركات التمرد هى استراتيجية المقاومة الوحيدة التى اتبعتها شعوب إفريقيا، فقد كان من أساليب المقاومة الشائعة الهجرات الجماعية احتجاجًا على قسوة الحكم الاستعمارى، وكان هذا الأسلوب شائعًا بوجه خاص فى المستعمرات الفرنسية، ففى تلك المستعمرات لم يكن فى استطاعة الإفريقيين أن يلجأوا إلى الثورة المسلحة نظرًا لمرابطة وحدات المراقبة العسكرية، فلجأوا إلى الفرار هربًا من التدابير الاستعمارية التى كانوا يرون فيها قهرًا وإذلالا لهم. ففى الفترة من ١٨٨٢ إلى ١٨٨٩ هاجرت أعداد كبيرة من الشعب الفولانى من ساحل العاج إلى ساحل الذهب ومن السنغال إلى جامبيا ومن فولتا العليا إلى ساحل الذهب ومن داهومى الى نيجيريا.

وكان يلجأ إلى تلك الثورات والهجرات الاحتجاجية سكان الريف وسكان المناطق الداخلية فى تلك المستعمرات ممن كان لهم اتصال مباشر بالأوروبيين، أما فى المناطق

(١) كانت ثورة ضريبة الأكواخ فى سنة ١٨٩٨ تعبيرًا عن استياء شعب سيراليون من تشديد قبضة الحكم البريطانى عليهم بتعيين مفوضين للأقاليم وتعزيز شرطة الحدود وإلغاء تجارة الرق وتنفيذ مرسوم الحماية الصادر فى سنة ١٨٩٦ الذى رخص للحكومة الاستيلاء على الأراضى البور وفرض ضريبة مقدارها خمس شلنات سنويًا على كل منزل من غرفتين وعشرة شلنات على المنازل الأكبر فى المحمية، فقرر زعماء الشعب بالإجماع الامتناع عن سداد الضريبة وثاروا على الحكم البريطانى بزعامة أحدهم هو باى بوريه، واشترك فى الثورة ثلاثة أرباع أهالى المحمية وكانت قوات الثوار تغير على المحطات التجارية وتنهب محتوياتها وتقتل الموظفين والجنود البريطانيين وكل من يشتبه فى مساعدتهم للحكومة الاستعمارية. وقد خربت البلاد من الناحية التجارية وأحرقت كثير من المحال فاضطر البريطانيون إلى استدعاء سريتين من لاجوس لقمع الثورة التى أرجعها حاكم سيراليون البريطانى إلى بروز الوعى السياسى عند الإفريقيين قائلًا «بدأ ابن البلد يشعر بقوته من واقع الأهمية التى يضيفها الرجل الأبيض على قيمة منتجات بلاده ونتاج عمله، ولن يكون بوسع الرجل الأبيض مستقبلًا أن يتاجر بسذاجة الإفريقي وجهله كما كان يفعل فى الماضى».

الساحلية والمراكز الحضارية فكان السكان يلجأون إلى خيارات أقل عنفًا منها الإضرابات[1] وحركات المقاطعة وإرسال العرائض والوفود من جمعيات وحركات شتى إلى الحكومات الاستعمارية المحلية والمركزية.

الاحتجاج الدينى:

ظهر الاحتجاج فى المجال الدينى بين المسلمين والمسيحيين وأتباع الديانات التقليدية فقد تحالف أتباع الديانات التقليدية فى السودان الفرنسى ضد انتشار الثقافة الفرنسية والدين المسيحى والإسلام، وأحيا أتباع الدين الإسلامى المهدية وأسسوا الحركات الصوفية التى قاومت الوجود الفرنسى، كذلك ثار المسيحيون الإفريقيون ـ خاصة فى المستعمرات البريطانية ـ ضد السيطرة الأوروبية على الكنائس وفرض الثقافة والطقوس الأوروبية وأدى ذلك إلى انفصالهم عنها وتكوينهم لكنائس خاصة بهم كالكنائس المسيحية والإثيوبية التى تتبع طقوسًا ومذاهب إفريقية متميزة، ومن هذه الكنائس كنيسة المعمدانية الوطنية وهى أول كنيسة إفريقية أُنشئت فى نيجيريا سنة ١٨٨٨.

أسباب الفشل:

كانت الهزيمة مآل كل حركة من حركات المقاومة والعصيان المسلح على الرغم من أن شعوب إفريقيا لم تكن تنقصها الشجاعة ولا الدراية بأساليب الحرب ولكنها كانت فى مركز ضعيف للغاية بالمقارنة مع الغزاة، فإن التفوق التقنى لأسلحة العدو لم يكن يقابله ميزة تعوض المقاومة عن ذلك التفوق، صحيح أنها كانت أكثر دراية ببلادها، كما أن قسوة الظروف المناخية كانت تضطر الأوروبيين إلى وقف حملاتهم فى خلال فترات كانت تتيح لأهالى المنطقة فترة لالتقاط الأنفاس، ولكن قوات العدو كانت تعوض ذلك أحيانًا من جنود إفريقيين يقودهم ضباط أوروبيون، وكثيرا ما كان يزحف وراء القوات النظامية الأوروبية آلاف من جنود الاحتياط الإفريقيين القادمين من المناطق المضمونة أو الخاضعة للحماية، وكانت مهمتهم الأساسية تتمثل فى النهب المنظم للبلاد المتصارعة مع الدول الاستعمارية كى يختل نظام تلك البلاد.

وفضلًا عن ذلك فإن دول إفريقيا لم توفق ملطقًا إلى اقامة تحالف عضوى يضطر

(١) شاع استخدام الإضراب كسلاح احتجاج لدى الإفريقيين مثلما حدث مع عمال السكك الحديدية على خط داكار ـ سان لوى عام ١٨٩٠، وفى عام ١٨٩١ أضربت النساء فى داهومى اللاتى كن يعملن فى الكاميرون، كما أضرب عمال لاجوس مطالبين بالأجور سنه ١٨٩٧ وقد وصف هذا الإضراب بأنه أول إضراب كبير فى المستعمرات.

أعداءها إلى خوض معارك على عدة جبهات فى آن واحد.. وقد لجأت معظم حركات المقاومة إلى حرب العصابات بعد فوات الأوان. بالإضافة إلى كل ذلك كانت الدول الاستعمارية قد توصلت عام ١٨٩٠ بمقتضى اتفاقية بروكسل إلى الاتفاق على عدم بيع الأسلحة للإفريقيين، وبعد هذا الاتفاق صار الإفريقيون يواجهون مشكلات إدارية بالغة الصعوبة واضطرت شعوب إفريقيا الى استخدام أسلحة عفا عليها الزمن كالبنادق القديمة والأقواس والسهام فى مواجهة المدافع ورشاشات مكسيم، وكان محصلة هذه العوامل هى هزيمة الإفريقيين.

لابد أن نسجل بإعجاب هذه الفترة البطولية من تاريخ إفريقيا، لا يشينها أنها منيت بالهزيمة على يد أعداء أقوى عدة وعتادًا طالما أن القضية التى ضحى جنود المقاومة الإفريقيون بأرواحهم فى سبيلها لا تزال حية فى أذهان أبنائهم وأحفادهم.

كلمة أخيرة:

أدى تبلور النظم السياسية القائمة على أساس الدول القومية فى أوروبا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبخاصة بعد اكتمال الوحدة الألمانية سنة ١٨٧٠ أدى إلى منافسة حادة بين هذه القوى الكبرى وإلى مناورات دبلوماسية بينها لا تتوقف، وفى ذلك الوقت حدثت تطورات داخلية على مستوى القارة الإفريقية إذ كانت هى الأخرى تجتاز مرحلة من التحولات الجذرية، فمثلا أدت الأزمات المالية لمصر إلى تدخل أجنبى متزايد تبعه ردة فعل ومقاومة وطنية وضعت البلاد فى أزمة سياسية داخلية. كما تسببت الاكتشافات المنجمية فى الجنوب الإفريقي بتعديل كامل لعلاقات القوة فى هذا الجزء من القارة الإفريقية، وقل الطلب على المنتجات القديمة كالذهب والعاج والعبيد على حساب المنتجات الحديثة كزيت النخيل والكاوتشوك، وأضعف هذا وضع الزعماء الأفارقة التقليديين فى أماكن واسعة فى إفريقيا.

وبطبيعة الحال لم يكن المستعمرون على معرفة بتفاصيل الأوضاع فى إفريقيا فى مستوى معرفة الحكام الإفريقيين بها، فكانوا ينفذون استراتيجية الزحف والتقدم بشكل عشوائى وغير منسق فاصطدموا بالعديد من حركات المقاومة الإفريقية، بل استثاروها من جراء جهلهم حتى أن بعض الأحداث التى اعتبرها المستعمرون تمردات اتضح أنها فرضت على الأهالى بسبب جهل البيض بأوضاع الإفريقيين.

كان محتمًا أن ينتصر الأوروبيون فى النهاية لتفوقهم العسكرى، وما إن انتصروا حتى

حاولوا أن يدعوا أن معظم الأفارقة تقبلوا «السلام الاستعمارى» شاكرين، وتم تجاهل وقائع المقاومة الإفريقية، وما يضحد هذا القول طلب زعيم ثورة الهيريرو من عدوه السابق الزعيم الإفريقى «ويت بوى» فقد كتب إليه يناشده القيام بعمل مشترك «إن رغبتى هى أن نهب نحن الأمم الضعيفة ضد الألمان فلتقاتل إفريقيا كلها ضد البيض ولنمت معًا فى المعركة أفضل من أن تموت بفعل سوء المعاملة فى السجن أو غيرها من الأسباب».

إن المقاومة الإفريقية أثبتت أن الإفريقيين لم يتقبلوا عملية إحلال السلم الأوروبية فى هدوء ودعة. إن المقاومة لم تكن يائسة ولا رعناء، وان حركات المقاومة هذه لم تذهب هباء، وأنها أتت بنتائج هامة وقتها ولم تزل لها اصداء هامة حتى اليوم، وأن هذه الثورات والانتفاضات أسهمت فى تحسين أوضاع الشعوب التى تمردت، وأن المجتمعات الإفريقية بكل اشكالها تقريبًا قاومت فى كل مناطقها الزحف الأوروبى، وأن الحكم الاستعمارى لم يفرض إلا بحد السيف واستمر قائمًا بفضله.

* * *

فى خلال القرنين ١٨و١٩ درج الأوروبيون على وصف الأفارقة بأنهم أشبه بالأطفال أو بغير البالغين، وأن على الدول الاستعمارية أن تمارس الوصاية على السكان الإفريقيين نيابة عنهم حماية لهم ولتحقيق تقدمهم، وهذا هو حق القوى فى حماية الضعيف! واعتبرت إفريقيا بمثابة تجمع من المقاطعات يتعين على الأوروبيين تجنيد سكانها وأدائهم لخدمة أهداف تحدد من الخارج.

كانت أهداف الاستعمار فى المستعمرات ترمى إلى الحفاظ على النظام وتفادى المصروفات المالية الباهظة وتشكيل قوة من الأيدى العاملة تستخدم فى أشغال نقل الأحمال، ثم فى مرحلة لاحقة شق الطرق وإقامة السكك الحديدية، وكان يستحيل أن يتم تحقيق هذه الأهداف إلا باستخدام العمل الإجبارى وفرض الضرائب (كانت الضرائب الشخصية المفروضة على جميع الإفريقيين من الذكور وسيلة لتمكين العملية الاستعمارية من الاعتماد ماليا على نفسها).

لذلك لجأ المستعمرون بعد أن أخضعوا القارة للسيطرة الاستعمارية، واحتلت غالبية الدول الإفريقية عن طريق الغزو إلى تنحية الرؤساء الإفريقيين الحاكمين ونفيهم، ولكن هذا الإجراء كان فاشلًا ومثيرًا للسخط وأدى إلى تفكك المجتمعات، واكتشف الاستعماريون

أنه يستحيل قيادة الأهالى بدون قيادة إقليمية، ولا توجد قيادة إقليمية بدون رؤساء محليين يكونون بمثابة الرابطة بين السلطة الاستعمارية والسكان، وأن استخدام المؤسسات القائمة يعد أفضل طريقة للإدارة الاستعمارية وهى التى تساعد المقيم الاستعمارى على مباشرة عمله، ورأت ان الإدارة غير المباشرة هى الأفضل وهى التى تتمثل فى عدم التدخلات فى النزاعات التى تنجم بين الأفارقة والإبقاء على مجال ملائم يستطيعون معه أن يقيموا توازنًا بين ما يبغون تطبيقه وبين الواقع المحلى القائم فا بتدعوا نظرية الإدارة غير المباشرة وهى ان يترك للرؤساء الأفارقة مسئولياتهم السابقة وكذلك وظائفهم وامتيازاتهم بحيث يتسنى لهم أن يظلوا فى أعين السكان المحليين الحكام الشرعيين.

ولكن الممارسة العملية كانت تختلف تمامًا عن المبدأ، والواقع أن الرئيس الأهلى المحلى لم يكن أكثر من مجرد أداة، كان عنصرًا مساعدًا فقط وبالتالى ضعفت وتقلصت مهامه وسلطاته التقليدية، وفشل فى إجراء التكيف المطلوب بين الأهالى والمستعمرين.

ملحوظة ختامية: إننا عندما نتحدث عن التكالب على إفريقيا نقصد به الاقتسام للأراضى الإفريقية وللسيادة الإفريقية، وننسى أن هناك جانبًا آخر لهذا التكالب على الموارد الإفريقية، فقد كان الماس والذهب من بين هذه الموارد ولكن أكثرها قيمة كانت القوة العاملة الإفريقية التى تكالبت السلطات الاستعمارية بحماس للحصول عليها، وكان استعمار إفريقيا يطرح على الغرب بديلًا أكثر ربحية له وأقل تكلفة وهو أنه بدلًا من استرقاق الافارقة ونقلهم عبر الأطلنطى فليسترقوا فى أرضهم ويُسخروا للعمل فى إنتاج ثروات إفريقيا لصالح الغرب.

وكما هبت القاومة لمواجهة التكالب على الأرض والسيادة؛ هبت كذلك لمواجهة التكالب على الأيدى العاملة، وكانت أشكال الفرار من مناطق العمل والإضرابات ورفض العمل فى باطن الأرض (فى المناجم) والشغب فى معسكرات العمل والإقامة هو ما اتخذته المقاومة لدرء بطش الاستعمار. وقد اكتسبت المقاومة عمقًا جديدًا من خلال المقاومة الاقتصادية ومواجهة العدوان الاقتصادى الأوروبى.

على أن الأثر الذى لا يُمحى من نفوس الإفريقيين والمترتب على الصدمة الأوروبية هو فقدان السيادة، وما إن يفقد شعب سيادته ويخضع لثقافة أخرى حتى يفقد اعترافه لنفسه

والقدرة على التصرف المستقل وهى الضامن الوحيد للإسهام فى صنع التاريخ إسهامًا فعّالًا وواعيًا. وهذا ما حدث بالفعل فقد فقدت الدول الإفريقية سلطتها واستقلالها ومعناها بين عشية وضحاها.

إن الدارس لتاريخ إفريقيا ليتعجب كيف استطاع أهل إفريقيا أن يحملوا هذا العبء الاستعمارى كله وأن يظلوا على قيد الحياة يكافحون.. لذلك ليس من العجيب فى إفريقيا أن شعبها قد استعمر ولكن العجيب أنه موجود وأنه باق على اصراره أن ينتصر على مستعمريه.

*****